ليلة العيد

ذهبت لزيارة خالتي أم عليّ عجوز القرية عندما لبيت دعوة صديقتي المعتادة، لقضاء إجازة عيد الأضحى. فقد كنت أجد عندها أحدث الأخبار والأقاويل، وأكثرها تشويقاً. وكانت تحدثني دائماً أحاديث طويلة مضحكة لا أظنها إلا من نسج خيالها. وكانت أم على خصبة الخيال، غزيرة المادة، تعبر عما يجول بخاطرها فى طلاقة وقوة تدعو إلى الدهشة، كما كانت تنحو نحواً خاصا عند قصها الحكايات والأخبار. وكانت حكاياتها تدور حول شبابها وحول جمالها الفتاك، الذى أصبح أثراً بعد عين، والقلوب التى غزتها والمعارك التى كانت تقوم بين شباب القرية حولها. وكنت أحب الاستماع إليها لخفة روحها التى كانت تنسيني قبح شكلها، بالرغم من أنى كدت أحفظ عن ظهر قلب كل ما كان عندها من حكايات.

دخلت عليها هذه المرة وحييتها فى حرارة، غير أنى لاحظت أن أمراً أصابها. فهى لم تستقبلنى بالمرح والحرارة اللذين ألفتهما منها، فهممت بالانصراف. وكأنها لاحظت منى ذلك، فأسفت على ما فعلت، وسرعان ما تغيرت وعادت إلى طبيعتها المرحة، وهبت واقفة ترحب بى بالعبارات المعتادة التى كنت أشتاق إلى سماعها منها. ولكن ذلك لم يكن ليخفى الألم الذى كنت قد لاحظته عليها أول الأمر.

وقالت معتذرة:

— لا تؤاخذينى يا بنتى! لقد سمعت قصة آلمتنى. وكم أود لو أستطيع لهذا الاشكال حلاً.

فقلت لها:

— هات ما عندك يا خالة، لعلّى مهتدية إلى حل إشكالك.

وهنا اتجهت بنظرها إلى ناحية من الغرفة، وكنت إلى ذلك الوقت لم ألحظ أن فى الغرفة غيرها؛ إذ شغلنى ألمها البادى أول الأمر عن ملاحظة أى شئ

آخر . فرأيت فى أحد أركان الغرفة الرحبة امرأة ترضع طفلا عمره نحو سنتين . وتأملت فى وجه الفلاحة فاذا بى أمام جمال يعجز القلم عن وصفه مهما أوتى من قدرة ؛ وجه كله فتنة فطرية ، فيه سذاجة وبراءة طبيعية ، لا نجدها إلا فى الريف ؛ وجه صبوح يبعث الراحة والهدوء ، وثغر باسم وإن كنت قد لاحظت شيئاً لم أدرك كنهه وراء هذه الابتسامة الخلابة . واستوقفنى جمال عينيها والروح التى تنبعث منهما ، ففى نظراتها حزن عميق ، وألم دفين ، وأسرار غامضة ، خيل إلىّ أنها تعود إلى سنين مضت . وشعرت صاحبتنا بعينىّ لا أرفعهما عن وجهها ؛ فحاولت إخفاء شئ عنى ، كأنها تريد ألا تشعرنى بما يجول فى خاطرها فيؤلمها ويقلقها ، فابتسمت تلك الابتسامة الجميلة ، ثم حنت رأسها على طفلها كأنها تهمس فى أذنيه بشئ ما .

وذكرتنى وهى فى هذا الوضع بصورة مريم العذراء والسيد المسيح . وكم وددت لو كان ميكل أنجلو إلى جانبى ليرسمها على لوحة تبقى مدى الدهر ويتمتع بها محبو الفن . غير أن خالتى أم على لم تتركها طويلا تسبح فى عالمها ، فحدثتها عنى بما جعلها تطمئن إلى وتأنس بى ، فرفعت رأسها وتفرست فى وجهى بضع ثوان ثم ابتسمت ثانية ابتسامة عبرت عن رضا تام وثقة كبيرة . وهنا كررت على أم علىّ سؤالى ، فقالت :

— المسألة مسألةُ الشيخة فاطمة ، وقد سمعتها منها فأثرت فىّ . كم أكون مسرورة يا بنيتى لو استطعت مساعدتها . لقد أطلق عليها أهل قريتها لقب شيخة بعد ما وقع لها . . .

فقلت ضاحكة :

— لعلها تتنبأ بخير يأتينا قريباً أو بعيداً .

فقالت أم على :

— بالله عليك لا تضحكى . وأمامك أم فقدت أعز ما تملك ، وهى على حافة الهاوية مرة أخرى . إن مشكلتها كبيرة تحير الألباب ، لم أر مثلها فى حياتى . حقا أنى لست بعجوز ، ولقد مر بى كثير من الأحداث .

وكانت هذه عادة أم على أن تذكرنا بأنها لم تهرم بعد ، وإن كان سن الشباب قد ولى . ورجوت الشيخة فاطمة أن تقص علينا قصتها ، فقالت : إنها تزوجت من ابن عمها ، وكانت موفقة كل التوفيق فى زواجها . وفى نهاية السنة الأولى من زواجها ، وضعت طفلة لم تقابل بالترحاب ؛ لأن الزوج كان يأمل

أن يولد له غلام . غير أنه سرعان ما نسى شوقه إلى غلام ؛ لأن زينب ملأت عليها البيت بضحكها وصراخها ، وخلقت فى البيت جوا من البهجة والمرح . كما كانت مشغوفة بأبيها لاتتركه طويلا . وسرعان ما مر الزمن ، وإذا بها تبلغ العامين من عمرها ، ووالدها فى راحة وهناء قلما يتمتع بهما الناس ، ولكن . . . دوام الحال من المحال — ثم أغمضت فاطمة عينيها ، وتنهدت بألم ، وعضت على شفتها كأنها تود أن تبعد من مخيلتها صوراً وذكريات ، ورأيت دمعة تسقط من عينيها المغمضتين ، حاولت هى إخفاءها بمسحها بيدها . فأردت أن أروح عنها ألا أتركها تكمل حديثها ، ولكنها صممت على متابعة كلامها وقالت :

— انتظرى قليلا ، فما حدث بعد ذلك هو موطن دائى . فى ليلة عيدالأضحى جلست أخيط ثوب ابنتى الذى كانت ستلبسه أول يوم العيد . وما انتهيت من الثوب حتى آثرت أن آوى إلى فراشى لكى أدفأ ، إذ كان الشتاء فى تلك السنة شديد البرد ينفذ إلى العظام . وسمعت طرقاً خفيفاً على الباب فى منتصف الليل ، ففتحت عينى وأنصتّ ، ولكنى لم أسمع سوى المطر المنهمر ، وكأن أبواب السماء تفتحت عيون كبيرة ، يتدفق منها الماء تدفقاً هائلا . وكنت أسمع صوت الرعد قويا وأرى البرق الخاطف ينير غرفتنا الصغيرة من آن لآخر . ورأيت زوجى نائماً نوماً عميقاً بعدعمله الشاق فى الغيط . ولما لم أجد ما يزعج تركته ينام حتى يستقبل العمل فى اليوم التالىموفور النشاط . ثم حاولت النوم ، غير أنه لم تكد تمضى بضع دقائق كنت قد استغرقت فىالنوم أثناءها حتى سمعت الطرق على نحو أعنف ففتحت عينى ثانية ، وجعلت أنصت إلى صوت آخر إلى جانب صوت المطر الذى كان قد اشتد . وشعرت أنى منقبضة النفس ، كأنى أنتظر حدوث مكروه . إن ثورة الطبيعة العنيفة خيلت إلى أن هذه هى نهاية العالم وفناء من عليه . فحاولت أن أسرّى عن نفسى بقراءة الفاتحة وبضع آيات من القرآن اعتدت قراءتها كلما شعرت بخوف أو اضطربت . وهممت بأن أوقظ زوجى ، ولكن قلبى لم يطاوعنى ، إذ تذكرت العمل المضنى الذى يقوم به من طلوع الشمس حتى غروبها . كل هذا وصغيرتى تنام بجانبى نوماً هادئاً . وحاولت أن أنام ، فلما لم أستطع قمت من فراشى وتوضأت وصليت ركعتين لله تعالى . لعله يسرّى عنى ويزيح هذا الكابوس الذى أشعر به . وكأن الصلاة بعثت فى نفسى الراحة المنشودة فنمت ، ولكن نومى لم يطل إذ استيقظت على الطرق لثالث مرة ، وقد اشتد حتى خيل إلىّ أن

باب الغرفة كاد يقلع . فصرخت قائلة : من ؟ من هنا ؟ ولما لم يجبنى أحد ، أيقظت زوجى وقصصت عليه ما سمعت . فقال وهو نصف نائم : هذا صوت المطر يا فاطمة ، نامى ولا تنزعجى . غير أنى لم أستطع أن أنام ؛ فقد كنت لا أزال أسمع الطرق . وأخيراً وأنا بين اليقظة والنوم رأيت الباب يفتح بكل لطف وسكون ، ثم رأيت شبحاً طويلا يلبس ملابس بيضاء ، يدخل الغرفة ويقترب منى شيئاً فشيئاً حتى وقف إلى جانبى . وانعقد لسانى من شدة الخوف ، فلم أقو على الكلام أو الصراخ . وكأنه فطن إلى ما أردت فعله ، فقال بهدوء : لا تخافى منى لا أريد إلا زينب الصغيرة . وأخذها من جانبى ، ومسك يدها ، وخرج بها من الغرفة. فصرخت صرخة خرجت من أعماق قلبى ، استيقظ على أثرها زوجى وابنتى ،وأخذت أتلمس ابنتى فاذا بها ما زالت إلى جانبى ، فأخذتها وضممتها إلى صدرى فى قوة وعنف ، وصرت أقبلها بشغف ولهفة ويدى تتحسس جسمها الصغير وتتلاعب بشعرها لأجد فى لمسى إياها الراحة التى كانت تملأ جوارحى كلما فعلت ذلك . ولكنى لم أستطع ، فبكيت بكاء مرا واضطربت أعصابى ، حتى خيل إلى زوجى أنى قد جننت ؛ ومازال بى يلاطفنى ويهدىء من روعى ، حتى استطعت الكلام. فقصصت عليه ما وقع ، ولكنه سخر منى وقال ضاحكا : لا تخافى شيئاً إننا مؤمنون ، ولن يسيئنا الله فى أعز ما نملك . هذا كابوس لأنك أكلت كثيراً ليلة أمس ، ثم نمت بعد العشاء مباشرة وساعد على الكابوس الطبيعة الثائرة . أرقدى إلى جانبى ، لقد بدأت الديكة تصيح ، وعما قريب تبدد الشمس ظلمات الليل ، ويذهب معها كل خوف .

لم أترك ابنتى تبتعد عنى طوال اليوم التالى ؛ إذ استمر يساورنى شعور مبهم من الخوف على وحيدتى . ولم يكد ينتصف النهار حتى قربت منى ووضعت رأسها على صدرى ، ثم ضمتنى إليها بحنان وقبلتنى كعادتها وقالت : « أمى هنا واوا » مشيرة إلى عنقها . خفق قلبى وتذكرت الليلة الماضية ، فمادت الأرض تحت قدمى، ولو أن الأرض انشقت وابتلعتنى فى تلك اللحظة ، لكان أهون على من رؤية ابنتى وهى تشكو . أرسلت أحد الغلمان لنداء زوجى فحضر مسرعاً ؛ إذ لم تكن من عادتى أن أناديه أثناء عمله . فأخبرته بما وقع ، فأشار على بوضع كمادات دافئة على عنقها ، وأخذ حرارته وذهب لاستدعاء طبيب المركز . وخيل إلى وأنا فى انتظاره أن الزمن لا يتحرك وأن غيابه طال . ولم تلفظ زينب كلمة واحدة رغم كل الجهود التى كنت أبذلها معها . وأخيراً حضر الطبيب مع زوجى . وما كاد يفتح فمها

حتى هز رأسه كمن لا حيلة له أمام إرادة الخالق ، وقال : الطب لا يجدى ولا ينفع . تشجعوا فالموت علينا حق وأنتم ما زلتم صغار . . فقطعت عليه كلامه بصرخة حادة ، إذ كنت أرى طفلتى العزيزة وهى فى أشد الألم تعانى سكرات الموت . وأخيراً أسلمت الروح ، وصعد مَـلَك صغير إلى السماء . فقطعت عليها كلامها ، وسألتها : ألم يخبرك الطبيب بأى شئ ماتت . قالت : نعم ، سألته فقال إنه مرض من أخبث الأمراض التى تصيب الأطفال ، إنه الخناق .

ومرت فترة كدت أنسى فيها هذه الحادثة ، لأن الله أنعم علىّ بطفلة أخرى . وعملت بنصيحة أهل القرية هذه المرة ، فتناسيتها أول الأمر ، ثم بعتها بمليم إلى أم عندها تسعة أولاد . واستحوذ على عقلى أحد المشايخ ، فأنفقت كثيراً من مال زوجى ، وبعت بعض الحلى فى صنع التعاويذ و إطلاق البخور ؛ فلقد كنت أخاف عليها أشد الخوف . ولكن كان هناك هاتف يهتف فى أذنى دائماً : انتظرى لم يحن الوقت بعد . لا تخافى الآن . وأخيراً حان ميعاد الزيارة المنتظرة ، وفى ليلة العيد زارنى الشبح زيارة تشبه الأولى ، ومرت أيام العيد دون أن يحدث شئ ، فكدت أطير فرحاً ، وبدأت أشعر بأن قلقى على طفلتى هو الذى أوحى إلىّ هذا الحلم المزعج . ولكن فى نهاية الأسبوع خرجت طفلتى تلعب مع سائر أولاد الجيران ، وعاد الجميع إلى أمهاتهم ، ولكنها لم تعد . وبحثنا عنها فى كل مكان فلم نجد لها أثراً ، وأخيراً وبعد أيام انتشلت جثتها من الترعة . وذاع الخبر عند أهل القرية ، فأطلقوا علىّ اسم الشيخة فاطمة . وحاولوا محاولات عدة لعلى أتنبأ لهم بشئ ، كما تنبأت بموت طفلتى ، ولكنى لم أستطع .

لم أطق صبراً بعد ما حدث لى ، فاعتزمت الرحيل وخاصة عندما أيقنت أنى أحمل بين أحشائى طفلا . وكنت لا أستقر فى مكان حتى أرحل عنه . ووضعت فى هذه الأثناء مولوداً ذكراً هو هذا . وأخيراً وصل بى المطاف إلى هذه القرية . وسمع الجميع بقصتى ، وكنت قد عزمت على الرحيل من هنا بعد يومين من وصولى ، ولكن ما لقيته من عناية ورعاية جعلنى أطيل إقامتى ، وخاصة عند خالتى أم على . فقد أشفقت علىّ وحاولت أن تسرّى عنى بحكاياتها المسلية .

فقلت لها :

— لا تيأسى من رحمة الله . إن المؤمن مصاب والله يمتحنك .

فأجابتنى والدمع يترقرق فى عينيها :

— لقد امتحننى بما فيه الكفاية . لقد وهب لى طفلتين جميلتين ، ولم أكد أتمتع بهما حتى أخذهما منى ، ولا أدرى لذلك سببا . . . ثم قالت فجأة :

— إن عيد الأضحى بعد يومين ، سأمضى اليوم هنا عند خالتى أم على لتروح عنى ، وتبعد عن مخيلتى الخواطر المزعجة ، سأمكث عندها حتى مطلع الفجر . ثم أرحل إلى قرية بعيدة لا أعرفها ، ولا أعرف من أهلها أحداً . . . . قرية بعيدة لا يستطيع الطيف أن يصل إلى فيها . إن الخوف يقلقنى ولا يريحنى لا ليلا ولا نهاراً ، ومصير ولدى محمد المعلق يذهب بعقلى . أرى خيوط الأمل فأتعلق بها ، ثم يعاودنى اليأس القاتل فلا أستطيع الهدوء . لقد فقدت بنتين ولكن . . . محمد... إنى لا أستطيع فراقه ، ولا أطيق البعد عنه لحظة من لحظات حياتى .

وأخذت تبكى فى حرارة بكاءً مرًّا أليماً ، وكانت الزفرات تخرج من بين جوانحها فتهز مشاعرى . ولكنى تركتها تبكى أول الأمر حتى تزيل شيئاً مما بها ، وتريح أعصابها المحطمة ، فالبكاء فى هذه الحال علاج نافع . وأخيراً بدأت أحدثها حديثاً طويلا عن رحمة الله الواسعة ، وأذكرها بعطفه على عباده، وأنه لا شك سيوليها من رحمته وعطفه الشئ الكثير ، وسترزق أولاداً ينسونها ما مرت به من شقاء وبؤس . وهكذا مر الوقت وأنا ألاطفها حتى رأيت الدمع يجف من مقلتيها ، وأعدت الابتسام إلى ثغرها . وقد كان لحديثى بعض الأثر ، فرأيت نوراً من الأمل إلى جانب ما كنت قد رأيت من ألم .

وتركتها بعد ذلك وعوامل اليأس والأمل تتنازعها . إن الموت نهاية كل كائن حى . ولكن من منا يستطيع أن يزيل عن أم آلامها ويجعلها تنظر إلى الموت نظرة فلسفية ! ولم يسعنى بعد تركها أن أتم زياراتى المعتادة فقد كنت مرهقة الأعصاب حزينة النفس ، فآثرت أن أنضم إلى صديقاتى .

مضى أسبوع العيد وحان ميعاد رجوعنا ، فذهبت لزيارة خالتى أم على لأستطلع أخبار فاطمة البائسة ، وإذا بها تستقبلنى ضاحكة كعادتها . ولما سألتها عما كنت أودّ أن أعرف قالت :

— سافرت قبل العيد كما قالت ، ولا ندرى عنها شيئاً الآن . لقد حاولت أن أخفف عنها ، ولكن . . . ثم هزت كتفيها ، وقالت ضاحكة : ماذا من موت طفل أو اثنين أو حتى ثلاثة ، إننا هنا فى الريف نلد فى سرعة ، وأولادنا أكثر من النمل من عاش عاش ومن مات مات . هه ! إنها عصبية دعينا منها ، إنى لا أحب أن

أفكر كثيراً فيما يحزننى ، ولهذا حافظت على جمالى ! ثم بدأت تسرد قصصها الشيقة المعتادة .

لقد حاولت كثيراً أن أعرف أخبار فاطمة بعد ذلك ، ولكنّ تلك العجوز المرحة ، كانت مفتاحى الوحيد إليها ، وقد فقدت فى أخبار فاطمة كل لذة وشوق ،إنها معنية بأحاديثها هى . ترى أين ذهبت يا فاطمة ؟ وماذا أصابك ؟ ألا فليلطف بك الله فلكم تألمت !

راجية فهمى